حقُّ العمـــــلِ

الحمدُ للهِ الذي امتنَّ على عبادهِ بنبيّهِ المرســـلِ، وبكتابهِ المنزلِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديهِ ولا مِن خلفهِ تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ وصفيُّهُ مِن خلقهِ وحبيبهُ، اللهُمّ صلّ وسلمْ وزدْ وباركْ على سيدِنَا مُحمدٍ وعلى آلِ بيتهِ الأماجد، وأصحابهِ الأكارم، والتابعينَ ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

وبعـــــــدُ... فإنّ خطبتَنَا هذه بعونِ اللهِ ومددهِ وتوفيقهِ ورعايتهِ تدورُ حولَ هذه العناصرِ:

أولًا: مكانةُ العملِ في الإسلامِ.

ثانيًا: عليكُم الحلالَ في الكسبِ، فإنَّ العملَ تحتَ رؤيةِ اللهِ ورسولهِ.

ثالثًا: ثمرةُ الجهدِ والعملِ النافعِ على الفردِ والمجتمعِ.

العنصرُ الأولُ: مكانةُ العملِ في الإسلامِ.

للعملِ مكانةٌ عظيمةٌ في الإسلامِ، وذلك ليجعلَ مِن عمرِ الإنسانِ فائدةً تعودُ عليهِ بالنفعِ، ثُم تعودُ بالنفعِ كذلكَ على ســائرِ الخلقِ، وكانتْ نظرةُ الناسِ للحياةِ قبلَ الإســلامِ مختلفةً، فكلُّ واحدٍ مِن الخلقِ يريدُ أنْ يشـــغلَ حياتَهُ فيمَا يطيبُ لهُ مِن ملهياتِ الحياةِ، فيفترضُ ذلك العمرَ في شـربةِ خمرٍ أو ركوبِ خيلٍ، وسـماعِ مغنيةٍ، لكنَّ الإسـلامَ غَيَّرَ نظرةَ الناسِ للحياةِ، وجعلَ منهم الســـواعدَ العاملةَ، واليدَ الكادحةَ، التي تعتزُّ بالعملِ وتتشـرفُ بالكسـبِ الحلالِ، ولا يوجدُ عملٌ حقيرٌ في الإسـلامِ ما دامَ يعفُّ صـاحبَهُ عن

الحرامِ، ويسـدُّ جوعتَهُ، ويسـترُ مِن خلالهِ عورتَهُ، ويغنِيه عن مذلةِ السـؤالِ، ويحفظُ ماءَ وجهِ وسـخاءَ يدهِ مِن أنْ تمتدَّ إلى الخلقِ بالسـؤالِ لحاجةِ العيالِ، فقالَ رسـولُ اللهِ ﷺ كما في صـحيحِ البخاري: « **وَالَّذِي نَفْسِـي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ** ».

فالإسـلامُ دينُ العزةِ والكرامةِ، دينُ العملِ ورفعُ الهامةِ، دينُ البناءِ للدنيا والآخرةِ، لا يحبُ الخنوعَ والدناءةَ، ويكرَهُ الكسـلَ والتواكلَ، شـعارُهُ إذا قامتْ القيامةُ وفي يدِ أحدِكُم شـجرةً يمكنهُ أنْ يغرسَهَا فليغرسْهَا، ومبدؤهُ ما أكلَ أحدٌ طعامًا قط خيرًا مِن أنْ يأكلَ مِن عملِ يدهِ.

مِن هذا المنطلقِ حذّرَ مِن أكلِ السحتِ، ومِن سؤالٍ عن كسلٍ وخمولٍ، ووصفَ يدَ الآخذِ بعدَ السـؤالِ بأنّها اليدُ السـفلَى الهابطةُ الذليلةُ، وحرصَ على السـعيِ والعملِ والأكلِ مِن عرقِ الجبينِ، لقد قِيلَ لرسولِ اللهِ ﷺ: إنَّ فلانًا يصـومُ النهارَ ويقومُ الليلَ. قال: فمَن ينفقُ عليهِ؟ قالوا: أخوه. قال: أخوه خيرٌ منه، وهكذا يقولُ ﷺ لأنْ يأخذَ أحدُكُم حبلَهُ وفأسَـهُ فيذهبَ إلى الباديةِ، فيقطعَ شـجرًا، ويجمعَ حطبًا، فيحملَهُ على ظهرِهِ، وكتفهِ، فيذهبَ بهِ إلى السـوقِ فيبيعَهُ فيأكلَ مِن ثمنهِ خيرٌ لهُ مِن أنْ يتسـولَ، ويمدَّ يدَهُ إلى الناسِ طالبًا إحسانَهُم، إنْ أعطوهُ كان ذليلًا دنيئًا، وإنْ منعوهُ كان كسيفَ البالِ خاسئًا حقيرًا. [**المنهل الحديث في شرح الحديث**].

ولمّا كان للعملِ في الإسـلامِ مكانةٌ عاليةٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ، إذ بهِ ينالُ العبدُ الأجرَ والثوابَ، وهو عبادةٌ عظيمةٌ للهِ تعالى وامتثالٌ لأمرِهِ، عن طريقهِ تقومُ الحياةُ، وتعمرُ الديارُ، وتزدهرُ الأوطانُ، ويحدثُ الاستقرارُ، أمرَ بهِ سبحانَهُ وتعالَى، وهيءَ الأرضَ وسهلَهَا لخلقهِ، وجعلَ فيها مِن الخيراتِ وقدّرَ فيهَا مِن الأقواتِ، وجعلَهَا ذلولةً لكافةِ البشـرِ على اختلافِ الدياناتِ، وهذا كمالُ فضـلٍ على بني البشـرِ، قالَ تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾. [الملك، **15**].

أي إنَّ ربَّكُم هو الذي سـخرَ لكم الأرضَ وذللَهَا لكم، فجعلَهَا قارّةً سـاكنةً، لا تميدُ ولا تضـطربُ بمَا جعلَ فيها مِن الجبالِ، وأوجدَ فيها مِن العيونِ، لسـقيِكُم وسـقيِ أنعامِكُم

وزروعِكُم وثمارِكُم، وسلكَ فيها السبلَ، فسافِرُوا حيثُ شئتُم مِن أقطارِهَا، وتردُوا في أرجائِهَا، لأنواعِ المكاسبِ والتجاراتِ، وكلُوا مِمّا أوجدَهُ لكم فيها بفضلهِ مِن واسعِ الأرزاقِ– والسعيُ في الأرزاقِ لا يُنافِى التوكلَ على اللهِ. [**تفسير المراغي**].

العنصرُ الثانِي: عليكُم الحلالَ في الكسبِ، فإنَّ العملَ تحتَ رؤيةِ اللهِ ورسولهِ.

ولمزيدِ التعظيمِ مِن شأنِ العملِ، الذي هو الوسيلةُ إلى الكسبِ، حضَّتْ هذه الشريعةُ الغراءُ على إتقانِه، وتحرّي الحلالِ، وحذّرَتْ مِن سوءِ العاقبةِ لِمَن لا يخشَى المآلَ، فبدأَ ربُّنَا بلفتِ انتباهِ العمالِ إلى أنَّه سبحانَهُ وتعالى يراهُم، ومطلعٌ بذاتِه على أعمالِهِم، ورسولُهُ الكريمُ ﷺ مطلعٌ عليهم، وكذلك عامةُ المسلمين، فقالَ تعالَى: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾. [التوبة، 105].

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ تَرْغِيبٌ عَظِيمٌ لِلْمُطِيعِينَ، وَتَرْهِيبٌ عَظِيمٌ كذلك لِلْمُذْنِبِينَ، فَكَأَنَّهُ سبحانه وتَعَالَى قَالَ: اجْتَهَدُوا فِي أعمالِكُم وأخلِصُوا، فَإِنَّ لِعَمَلِكُمْ فِي الدُّنْيَا حُكْمًا وَفِي الْآخِرَةِ حُكْمًا، أَمَّا حُكْمُهُ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ أَنَّهُ يَرَاهُ اللَّهُ وَيَرَاهُ الرَّسُولُ وَيَرَاهُ الْمُسْلِمُونَ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً حَصَلَ مِنْهُ الثَّنَاءُ الْعَظِيمُ وَالثَّوَابُ الْعَظِيمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً حَصَلَ مِنْهُ الذَّمُّ الْعَظِيمُ فِي الدُّنْيَا وَالْعِقَابُ الشَّدِيدُ فِي الْآخِرَةِ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إِلَيْهِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَمَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ. [**تفسير الرازي**].

ثم أغلقَ البابَ على صاحبِ الكسبِ الحرامِ، فأخرجَ أحمدُ وغيرُهُ، مِن حديثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» ، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: « **غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ لَا يَمْحُو**

السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ». أَيِ: الْمَالُ الْحَرَامُ لَا يُجْدِيَ الْبَتَّةَ فَعَبَّرَ عَنْ عَدِيمِ النَّفْعِ بِالْخَبِيثِ. **[مرقاة المفاتيح]**.

ثم وضعَ الحقُّ سبحانَهُ وتعالى قاعدةً لخلقهِ، هي معيارٌ يقاسُ بهِ الكسبُ الحلالُ، وميزانٌ يحترزُ بهِ عن أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، ولا يحرمُ المرءُ نفسَهُ مِن الثوابِ الجزيلِ الذي أرشدَنَا إليهِ سيدُ الخلقِ وحبيبُ الحقِّ سيدُنَا مُحمدٌ ﷺ حين جعلَ صاحبَ الكسبِ الحلالِ، الذي يراقبُ ربَّهُ في كسبهِ في منزلةِ مَن يُستشهَدُ في سبيلِ ربِّهِ، وأنّ عملَهُ في أعلَى المنازلِ، فعندَ الطبرانِيِّ والبيهقِي، أنَّه مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ جَلَدِهِ ونَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّها فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ** ». فهذا الثوابُ العظيمُ والعطاءُ الجزيلُ لا يغفلُ عنهُ العقلاءُ، ولا يرضُوا بغيرِ هذا الفضلِ بديلًا، لكنْ أهلُ الغفلةِ قد يؤثرونَ الفانيةَ على الباقيةِ، ويرضونَ بالملذاتِ والشهواتِ عوضًا عن جناتِ القرباتِ والفوزِ بالدرجاتِ.

والقاعدةُ التي ساقَهَا ربُّنَا لخلقِهِ، ليتحرُّوا الكسبَ الحلالَ، هي في قولِهِ تعالَى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴾. [النساء، 29].

وهذا يقتضِي أنَّ حصولَ المالِ لا بُدَّ أنْ يكونَ بطيبِ نفسٍ، وطرقٍ مشروعةٍ، وإتقانِ عملٍ، ونصحٍ وإرشادٍ، وإلّا دخلَ في دائرةِ الكسبِ المحرمِ الذي يجلبُ على صاحبهِ الويلَ والثبورَ وعظامَ الأمورِ، فينعمَ بهِ في الدنيا ثُم يلقَى جزائَهُ يومَ لا ينفعُ فيهِ مالٌ ولا بنونَ إلّا مَن أتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ.

وبيّنَ سبحانَهُ وتعالَى أنَّ النهيَ عن أكلِ مالِ الغيرِ معقودٌ بصفةٍ, وهو أنْ يأكلَهُ بالباطلِ، وقد تضمَّنَ ذلك أكلَ أبدالِ العقودِ الفاسدةِ كأثمانِ البياعاتِ الفاسدةِ، وكمَن اشترَى شيئًا

مِن المأكولِ فوجدَهُ فاســـدًا لا ينتفعُ بهِ فيكونَ أكلُ ثمنهِ أكلُ مالٍ بالباطلِ، وكذلك ثمنُ كلِّ ما لا قيمةَ لهُ، وســـائرُ ما لا منفعةَ فيهِ، فالانتفاعُ بأثمانِ جميعِ ذلك أكلُ مالٍ بالباطلِ، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن باعَ بيعًا فاسدًا وأخذَ ثمنَهُ أنَّه منهيٌّ عن أكلِ ثمنهِ وعليهِ ردهُ إلى مشتريهِ؛ لأنّهُ ربحٌ حصلَ لهُ مِن وجهٍ محظورٍ. [أحكام القرآن للجصاص].

وهذه القاعدةُ أوضـــحَهَا رســولُ اللهِ ﷺ كمَا عندَ مســلمٍ وغيرهِ مِن حديثِ النَّوَّاسِ بْنِ سِــمْعَانَ الْأَنْصَـارِيِّ، قَالَ: سَـأَلْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: « **الْبِرُّ حُسْـنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** ». حَاكَ فِي صَدْرِكِ أَيْ: تَحَرَّكَ فِيهِ وَتَرَدَّدَ وَلَمْ يَنْشَرِحْ لَهُ الصَّدْرُ وَحَصَلَ فِي الْقَلْبِ مِنْهُ الشَّكُّ وَخَوْفُ كَوْنِهِ ذَنْبًا [**شرح النووي**]. ولعلَّ هذا مِن عدلِ اللهِ في خلقِهِ، بأنْ أوضــحَ لهم كافةَ الطرقِ والسـبلِ التي ترشـدُهُم إليهِ وتدلُّهُم عليهِ، فأحيَ ضـمائَرَهُم وأيقظَ فيها واعظَ اللهِ يرشـدُهُم إلى ما فيهِ الخيرُ والنفعُ، فكلُّ كسـبٍ تتردَّدُ فيهِ، ولا ينشرحُ صدرُكَ لهُ فهو مؤشرٌ على أنّه كسبٌ حرامٌ، وفعلٌ مئزرٌ غيرُ مبرورٍ.

العنصرُ الثالثُ: ثمرةُ الجهدِ والعملِ النافعِ على الفردِ والمجتمعِ.

لكلِّ عملٍ أخذَ حقَّهُ مِن الإخلاصِ والاتقانِ ثمرةٌ تعودُ على الفردِ والمجتمعِ، بل ينعكسُ فضلُهُ على كافةِ الخلقِ، وعمارةِ الدنيا، ويعيشُ بهِ الإنسانُ عيشَ السعداءِ، وينالُ به في الآخرةِ ثوابَ الأتقياءِ، وقد بعثَ الحقُّ سبحانَهُ وتعالَى أنبياءَهُ أربابَ حرفٍ مختلفةٍ، ولو شـاءَ لصـبَّ عليهم العطاءَ، وأغدقَ عليهم المالَ مِن غيرِ عناءٍ، لكنْ جعلَهُم للبشـرِ قدوةً وقادةً، وحضَّـهُم على العملِ فهو جزءٌ مِن العبادةِ، وبيّنَ أنّ نظامَ هذه الحياةِ يتطلبُ السـعيَ والعملَ، فجميعُ المخلوقاتِ مِن حولِنَا تسـعَى بجدٍ، وتعملُ بنشـاطٍ، والعاقلُ لا يرضَـى لنفسهِ أنْ يكونَ عالةً على غيرهِ، وهو يعلمُ أنّ الرزقَ منوطٌ بالسعيِ، وأنَّ مصالحَ الحياةِ لا تتمُّ إلّا باشـتراكِ الأفرادِ حتى يقومَ كلُّ واحدٍ بعملٍ خاصٍّ لهُ، وهناك تتبادلُ المنافعِ، وتدورُ رحَى الأعمالِ، ويتمُّ النظامُ على الوجهِ الأكملِ.

اللهُمّ أعنّا على العملِ النافعِ والكسبِ الحلالِ، واجعلْ اللهُمّ بلدنَا مصرَ سخاءً رخاءً وسائرَ بلادِ المسلمين، اللهم جنبنَا الفتنَ ما ظهرَ منهَا وما بطن، ووفقْ شعبَهَا وولاةَ أمورِهَا إلى ما فيهِ الخيرُ للبلادِ والعبادِ بقدرتِكَ ورحمتِكَ يا ربَّ العالمين.. اللهم آمين!

بقلم/ مسعود عرابي.